من التاريخ السري لدير وطن الشريف

لا نعرف ـ بالتحديد ـ متى حدث ذلك ، لكنه بالتأكيد حدث ، ورد ذكره على لسان أبي ، ولم تنكره أمي ، وثرثر فيه يحيى حقي ويوسف ادريس وخليل عيسى الفار وعلي الجهيني والخواجه بسادة والمقدس بباوي وعبد الودود الاخنف ، وعبد الودود الاخنف كان اكثر القوم الحاحا في تاكيد حدوثه ، ويوسف ادريس حاول مستميتا ان يحدد زمان حدوثه ، وتجرأ ذات مرة وقال ان ما حدث حدث منذ زمان طويل ، وعلى وجه الدقة أيام الكوارث التي اجتاحت سدوم وعمورية .

على اننا ـ في عصرنا القائم ـ لا نملك دليلا محددا يمكن لنا أن نقف على مادته لتحديد ذلك الوقت ، ربما لو كان الشيخ علي ـ فقيه القرية المتبحر ـ لا زال يعيش لنحنا ما نستند عليه ، فقد كان الشيخ علي يملك كتابا اصفر مطلسما قيل ان القرية ظلت تتوارثه سرا حتى انتهى الامر بالكتاب اليه ، وقيل ان الشيخ علي مات محترقا والكتاب في حوزته ، بل وقيل ايضا ان الشيخ مات بسبب محاولته فك الطلاسم الحاوية كل ما نبغيه من تفاصيل ، ثم قيل ـ وما اكثر ما قيل ـ أن قرينة الشيخ الشهير قد اصطحبت كتاب القرية الطلسم مهاجرة به الى قريتها تلك الواقعة خلف الجبل الازرق في المكان الذي تغيب فيه الشمس .

ولا أنكر ان معظم ما اختلف عليه قومي كان زمن الحادث او بدايته أو مكانه ، البعض يعتقد ان قبلي البلد مكان مناسب للبداية جامع الامير سنان وقبره وشاهده ، وآخرون يعتقدون ان بحري البلد اكثر تناسبا للبداية ، فهناك كنيسة الانبا سرابامون (١) وقبره وشاهده ، وفريق ثالث ـ ومعظمه من سلالات غريبة عن البلدة ـ يؤكد ان ما حدث بدأ في الوسط حيث تكثر البيوت السرية ومنازل البغاء وتجمعات الراقصات وجوقات الغوازي .

لكن واحدا من قبلي او بحري او وسط البلد ـ حقيقة ـ لم يحاول ان يشكك في الحدث ذاته .

ـ ١ ـ

والحدث ذاته بدأ في ظهر نهار جمعة (في رواية عبد الودود الاخنف) وفي صباح يوم سبت النور (في رواية المقدس بباوي) .
كان أحد رجال قريتي جالسا على رأس حقله يردد مواويل الصبر

---

(١) ربما لهذا السبب يطلق على البلدة (ديروت سرابام) .

الشهيرة حينما ثقل لسانه وتلجلج فارتبك الرجل وفزع ، لم يخرس تماما لكنه فقد سيولة الكلمات المتدفقة من حنجرته ، تهتكت كلماته في قاع الحلق ثم خرجت مطحونة ... مجرد حروف لا يربط السابق فيها باللاحق الا تهتهة عواء ممطوط متوتر .

وظل الرجل في مكانه وحيدا يحاول معالجة اخراج الكلام من حلقه ، تعاونت الشفتان واللسان وقاع الحلق وعضلات جوف الخدود وسقف الخشم كي تربط الحروف وتصحح الكلمات وتنظم ترتيب الجزئيات وتلغي الاوشاب الصوتية ، لكن محاولة الرجل فشلت ...

وهرع الرجل الى داره متابطا رعبه ، ليس متابطا ـ فقط ـ رعبه .. بل وفاضما لقمة كبيرة من الرعب تتخبط في فمه وتدفع بالصفرة والفزع والوجل الى كل كيانه .

وهرعت قريتي الى رجلها تقف بجواره ، من حضر ليفتح الكتاب ويفك (العمل) ، ومن جاء ليفصد الدماغ وما بين الكتفين ، ومن أتى لياخذ قطعة من ملابس المصاب ليحرقها كي تخطو عليها زوجه العاقر سبع خطوات ثم تستحم في ليلة مقمرة بماء مذبوحة فيه ضفدعة ، ومن قدم ليفسر الحدث كله ويعلقه في رقبة الكفر الذي انتهك حياة المصاب وجعله يتخلى عن دينه فلا يزور مشاهد القديسين ...

وقريتي لئيمة ، تنفعل وتصرخ وتواسي وتفتي ، ثم تترك الامر في نهاية الامر لصاحب الامر ، حيث تعود الى خدورها مقتنعة ان ما حدث واجب الحدوث ، فلا بد بين الحين والحين من واحد يلدغ بعقرب او يغرق في النهر او يسقط عليه حائط أو يهوي من فوق نخلة او يخرج له عفريت هواش الشهير ليرعبه ويشله ، أو تناوره عبدة السواقي لتجرفه معها الى بطن ساقية او جوف هويس ، نعم : قريتي لئيمة وتعلم جيدا انها ـ بين وقت وآخر ـ لا بد لها ان تستقبل حادثا كهذا : نسبة قدرية محددة من رجالها تقدمها قربانا للزمن ، ليحمد الله ـ بعد ذلك ـ كل من لم يصب انه لم يكن المصاب ...

وكادت قريتي أن تنتهي من فلسفة الحادث تمهيدا لان تضع ذراعها تحت رأسها وتنام ...

لكن الامر لم يتوقف عند مجرد رجل واحد يخرس ، ففي نهاية ذاك اليوم فقد تاجر حمير النطق دون ان يخرج من داره ليواجه عفريت هواش او عبدة السواقي ..

وقبل ان تفيق البلد من وجلها خرست امرأة متدينة ، وفي شرق البلد نهش ثعبان لسان المشرف على الاسواق ، وانشرخ لسان صانع

تماثيل ، خمسة ، ستة ، ستون ، مائة ، كل القرية ، حتى خطيب مسجدها الورع ، الابيض كالحليب ، الطيب كنبي ، المؤدب كبنت بنوت ، الشهم كفارس ، الشجاع كابن ابي طالب ، هـذا الخطيب المفوه : انفتح فمه عن آخره وهو واقف على المنبر يحث المؤمنين على الصبر ونبذ المعصية والتعلق بحبال الخالق ، وظل فمه مفتوحا حتى تنبهت اليه الجماهير ، فهرع الناس اليه وحملوه في جو مذعور مرعوب مليء بالمواء والنقنقة والانزعاج .

لا بد من الاستيعاذ بالله ولا بد من مصمصة الشفاه ...

لكن قريتي خرست ، انشل لسانها وذابت حراشيفه وفشل في صنع أي حرف من تلك الحروف العظيمة التي تكوّن الكلام ، خرست وأصاب الذعر جسدها والدوار رأسها وانفتحت عيونها رعبا ، أصابها الداء فظلت تجري يمينا ويسارا ، وتلج بيوت القديسين ومشاهد المشايخ وأنصار الله ، تدق الخردل والحلبة والدمسيسة وحلف البر والخلنجان وتصنع منه مزيجا تشربه على ريق النوم ، تعرج الى المقابر فتسفّ التراب ثم تنزل الى بطون الترع ومسارب المياه تستحم او تدهن جسدها بالوحل ، تتوسل الى الرب في المذابح ـ على ضوء الشموع ـ ثم تؤدي صباح كل يوم ركعتي صلاة الخوف ، تقطع جريد النخيل وتصنع منه صلبانا وتنام تحتها في الليالي المقمرة ثم تنفض الصلبان وتهرع الى باحة المسجد لتبكي وتندب وتستصرخ الواحد القهار ، تناوش داءها الرهيب او يناوشها الداء الرهيب فلا تعود الى نفسها الا والمستحيل الابكم متقوقع داخل خشمها ، عاجزة ان تجمع الحرف جنب الحرف او ترص الكلمة وراء الكلمة لتفشل في آخر النهار على تكوين جملة ، او تنجح ـ في حالات نادرة ـ ان ترص الحرف جنب الحرف والكلمة وراء الكلمة لتكتشف ـ في آخر النهار ـ ان الجملة التي وصلت اليها ليست الجملة المقصودة ، كلام مبتور مفتت مهشم ممزق يتسرب من أفواه واسعة يطن داخلها لسان من اللحم الطري البارد الراقد وسط بحيرة لعاب .

ومحاولات شاقة تلك التي بذلوها كي يصلوا الى سر النكبة وتعليل المصيبة ، لجأوا الى بعض ذوي الدراية والخوارق في المناطق المجاورة وذبحوا لهم الخرفان والديوك الرومية ، وعانوا من بلع الاحجبة أو مضغها ، وعانوا من القفز فوق الحفر الدائرية المملوءة بالنار المعبق بالبخور وذيول الفيران وأرجل الزواحف ..

ثم استعانوا بمن يمر بهم من الفجر والاعراب ، وامتلات القرية بالدجالين والسحرة واصحاب الرؤية ومعاشري الشياطين ، فلما ظلت المحنة قائمة سافرت وفود منهم الى كردفان وسيوة ووادي المساخيط ...

وكل واحد له تفسير وتبرير ، فتوى من الواحات تقول ان واحدا من اهل القرية ـ لا بد ـ قد قارف سوءا مع أمه أو أبيه ، ومقولة أخرى ان واحدا من اهل القرية لا بد قد مارس العيب على أجولة الدقيق ففضبت (النعمة) على البلد ، وربما كانت آخر محاولات حل الرصد المعمول للقرية ان اشير لها ان تقوم بذبح طفل يتيم ذي شعر أحمر ، وان يلطخوا بدمه اليات ومؤخرات الرجال وبطن فخذ النساء ، فلما قامت البلد بتحضير العلاج على طفل اختلسوه من نجع مجاور ، ولما افتقد النجع المجاور طفله الاحمر الشعر ونمى الى علمهم انه تحول الى عقار لشفاء البلد من الخرس ، قامت النجوع كلها بمحاصرة البلدة ، ثم اقتحموها ، وذبحوا أبناءها ورجالها ، وسبوا ثماني نساء ، وبالوا على وجه مائة شيخ من اعيانها ، لتتوقف قريتي بعدها عن تجريب أي حل آخر ...

ـ ٢ ـ

ظل الذعر كابسا على صدر قريتي صامتا وحشيا وعرا ، صحيح ان الحقول جفت واجتاحها القفر والصفرة ، وصحيح ان بياض البيوت تهشم وسقطت القوالب من أصداغ الابواب ، وصحيح ان حيواناتها أجهضت وذوت وتكرشت ، وصحيح ان التراب عفر الوجوه واللحى والعمائم ... ، لكن ذلك ـ كله ـ لم يكن يهم قريتي ، الذي يهمها هو لسانها ، لسانها ... فلم تكن البلد مرتبطة ـ نهائيا ـ بالعمل اليدوي ، هي في مجال آخر قرية متاجرة كل كبارها ورجالات أعيانها تجار : تجار عجول وجواميس وفراخ وكتاكيت وردّة ونخالة وعسل وحبوب وخضروات ، يعتمدون اول ما يعتمدون على تلك العضلة الكنز : اللسان ، بلسانهم يجاملون ويجادلون ويستدرجون ويقسمون بالحي القيوم والكتب المقدسة ويمدحون ويكذبون ويغتابون ويدفعون ويدافعون ويسامرون ، لسان مرن متحرك يظل يلعب داخل الفم ثم يفرز في الوقت المناسب الجملة المناسبة ، يهمس بأرق وانضر وأجمل الكلمات ، ويفح بالعن وأقسى الكلام ، يشم ويتذوق ـ هذا اللسان العريق ـ ويلف ويدور في الاسواق والافراح ليعود للبيوت بأوفر ربح ، لسان حلو متفتح يتغنى بالموال فيهز كل جسد المنطقة بالرقص ، سلس طروب لين مسرور يتقلب في أعماق الحكمة والاساطير والحكايات، فلكم غزا أبو زيد ـ على لسان قريتي ـ الاصقاع والمدائن فانتصر ، ولكم قفز علي الزيبق فوق الاسوار وأسفل الحوائط واختفى واحتمى بلسان قريتي ، وكم تجول (حسن) المغني الشهير باحثا عن (نعيمته) وبسط له لسان قريتي السهول والسوديان لينعم ويغني ويلتقي بمعشوقته ، وحتى تلك الحكاية القديمة المخيفة .. حكاية الرجل الذي قتل أخاه ومزق جثته ووزعها على بقاع المنطقة ، انتهت على لسان قريتي الى حكاية دافئة حالمة تجمع خلالها زوجه اشلاء المقتول المتناثرة وتعيد اليها الحياة ...

لا حول ولا قوة الا بالله ، فها هو لساننا العريق يتقوقع ويتقلص ويتخدر نائما على لفافات الكلام المتهتك المتساقط في قاع الحلق ، وها هي المواويل الخضراء تتيبس والتعليقات المرحة تتخثر والضحكة ذات العمق والاتساع تتهدل ، ولا يبقى في الجو سوى الكآبة والفحيح .

ـ ٣ ـ

ولقد مرّ على شان قريتي هذا زمن ، قيل شهر وقيل عام وقيل قرن (١) ، قبل أن تتماسك وتصلد وتسحب جسدها المكدود من بين المقابر وبيوت القديسين والاستحمام في المياه المضفدعة ، لتعود الى حقولها وبهائمها وزرعها ونخلها وكل شؤونها ، أضناها الجوع والعري وسخريات القرى المجاورة ، وارتجّ عليها الامر لكنها أسرعت فامسكت بزمام الامر حتى وهو مرتج ، وبدأت تدير ـ حزينة واجفة ـ ما تبقى من مسائلها ... تحركت الاذرع والسيقان والعضلات لتدير السواقي المخربة ولتفتح القنوات وترفع التراب وتثقب الآبار وتحفر المسارب ، تحركت قريتي هزيلة صامتة خرساء الى ارضها وأشجارها وأوانيها وكوانينها (٢) وأفرانها ومرابط حيواناتها ، الخرس مصيبة لكن الجوع كافر، واذا كان الكلام ضرورة فان حق الامعاء اعلى من اي ضرورة ، واذا بقريتي تعيد في بطء وأسى ترتيب أوراقها ، فاذا كان لسانها قد مات فان باقي أجهزتها قائمة حية تعمل : العينان والذراعان والقدمان وآلة التناسل والقلب والمخ ، وعلى طاقة اللسان وقدراته ان تتسرب الى باقي كيان الجسد ، فتلجأ قريتي الى لغتنا الاولى البدائية القديمة فتمسح عنها الغبار وتعيد اليها طلاوتها وطرافتها وجدتها وحرارتها وامكانياتها ، الاشارة ، فن الاشارة ، ذلك الفن العريق الطريف ، ذلك الحل الاحتياطي لاي أزمة تواجه اللسان .

---

(١) روى الشيخ ثابت عبد الرحمن ـ رحمه الله ـ انه سمع من بين الثقاة ان الفترة التي انهارت فيها قريتي بعد ذلك الحادث استمرت ثمانية عشر عاما فقط ، لكنني لا أميل الى هذا الرأي.

(٢) الكوانين : وسائل بدائية للطبخ وايقاد النار .

وبدأت البلد تنمي فاعلية لغة الاشارة ، حقا .. قد تموء وتنقنق وتمط الاصوات لكنها مع حركة اليدين والحاجبين والفم وايماءات الراس استطاعت أن تنسى ، تنسى أو تتناسى ، هي على أي حال تتحرك ، تتحرك بعيدا عن ذكريات الايام الاولى للمحنة وقبل ان تذبل آخر قدراتها على الكلام ، عندما اتضح لها ان القادر على تكوين جملة يتساوى مع القادر على فركشة جملة ، هي على أي حال تتحرك ، تتحرك الى بهائمها لتخرج بها الى الهواء الطلق ، والى مزروعاتها واشجارها تنميها وترعاها ، والى بيوتها تعيد بناء حوائطها المتهدمة ، والى مصاطبها تزيلها تماما من امام الابواب فلم يعد ما يدعو الى السمر ـ جلوسا ـ فوقها ، ثم لم تلبث ان ظهرت في الافق مساجد بلا مآذن حيث استبدل الناس بالعقيرة المؤذنة مجرد خبطات فوق الصفيح ـ أو الطبول ـ داعين لاداء الفروض ، ثم عظم شأن العينين والاذنين ، واصبح الانصات لاقل اقل فحيح واجب ، والانتباه لاقل اقل حركة ضرورة ، وعكفوا على فن الاشارة يطورونه ويبدعون في حركته ، ليس فقط في مجرد التفاهم السريع العاجل بل وفي رواية الحكايات ، حتى وصلت قريتي أن تقص به الاعاجيب ، حكايات ابي رجل مسلوخة والغولة والشاطر حسن والخشخبان وبدر البدور ، بل ووصل الامر ان يختزل الذراعان كل قدرات اللسان فيحكيا ـ حتى ـ النكتة واللغز والاحجية والنادرة ، الى ان جاء وقت على قريتي كانت تحكي ـ نعم تحكي ـ فيه نوادر عن رجل كان يتكلم تماما كما نحكي نحن الآن نادرة عن رجل كان أخرس .

ـ ٤ ـ

انتعشت الحقول والشواطىء رغم ذبول اللسان ، لكن تجارة قريتي بارت ، نعم : من الممكن ـ مثلا ـ أن تتعامل مرة مع تاجر أخرس، لكنك لن تستطيع التعامل كل مرة مع كل تجار القرية البكم ، صحيح ان التجار حاولوا ان يستعيضوا بالايدي عما لم يستطيعوا تبيانه بلسانهم ، لكن للتجارة شانا آخر يحتاج الى همس وقسم وصراخ واقناع ورفض وتمهيد ومساومة وحيثيات وموافقة ، واذا كانت قريتي لم تأخذ زمنا جسيما لتعود الى حقولها الا انها عجزت تماما ان تعود الى عالم التجارة ، اذ ان الحقول ـ في النهاية ـ تحت سيطرة اهلها ، اما التجارة فانهم مجرد طرف فيها ، طرف وجد مشقة ـ وأي مشقة ـ لاقناع الاطراف الاخرى بالتعامل معه ، ولا سيما وان الاطراف الاخرى هي تلك القرى المتكالبة المتنافسة المتصادمة المتزاحمة في الوادي الواسع والتي اصطدمت كلها بقريتي ايام ذبح الطفل الاحمر الشعر .

وأقوال كثيرة وردت الينا في هذا الخصوص ، منها مثلا ما اشيع من ان التجار انهاروا ثم لم يلبثوا ان ذابوا وسط الفلاحين واندمجوا فيهم وعادوا ملاكا أو مستأجرين أو عمال أرض ، ومنها ما قيل من ان التجار تحولوا الى مجرد وسطاء محدودي الجهد داخل معاملات اهل البلد فقط ، ومنها ـ مثلا ـ ان التجار قد هجروا قريتهم وتسللوا الى قرى اخرى بعيدة ومتناثرة يمكن لكل قرية ان تتحمل تاجرا أخرس : تاجرا واحدا أخرس ، وكل ذلك يعني ان قريتنا بدأت تبحر نحو الشاطىء ، وانها بدأت تبحث لها عن شؤون اخرى تتفق مع كل درب تلجه ، ومما يحكى ان قريتي بعد ان فقدت أسمارها ومجالس انسها ووجدت صعوبة في ابلاغ حكاياتها وفضائحها وشكاياها والحوادث الفردية ، اضطرت ان تخلق تجمعات اخرى لا لسان لها ، تجمعات لها وسائلها الخاصة في الاستمتاع ، ذبل اللسان وانكتم الصوت : هذا صحيح ، لكن البلد لجأت الى الاكف ، الى كفيها ، تعثرت في البداية وظل الكف يخبط في الكف مؤديا مهام صغيرة : النداء أو الاستحسان أو الرفض او الغضب ، ثم لم تلبث الاكف ان صنعت لها تصفيقا خاصا مريحا ومسليا ، فن وليد ـ فن التصفيق ـ بدأ يدخل في دمها ونخاعها ويحل محل المواويل والحكايا والاسمار والنوادر وكل ما قد يستعان فيه بالحديث ، بالحروف ، بالكلام ، بالراي ، بالحجة ، ووجدت بلدتي ذاتها تتحقق في التصفيق ، وفي تنوع التصفيق ، فيكفيها التصفيق مؤونة التسلية ، فتقيم به الليالي والحفلات ، قد تستعين بمغن من خارجها ، لكن المرح والانتشاء والاندماج ينبع لا شك من تلك الاكف المدربة الفنانة الجزلة ، بل وأصبح من السهل أن يقام السامر دون مغن على الاطلاق ، حيث تنسال الراقصة وسط الحلقة مهتزة على وقع التصفيق السار المغموس في عمق الاعطاف والقلوب ، تصفيق على الكفين وبالكفين وعلى الظهور وعلى الركب وعلى الخدود وعلى السيقان ، تنويعات وايقاعات متولدة من رغبة حقيقية ان تستمتع قريتي ولتنس ما مر وما مضى ، وحتى جاء وقت على أهل بلدتي غزوا فيه ليالي وأفراح القرى الاخرى رغم كل الحواجز ، فتجد في القرى الاخرى المغني المبدع او الراقصة المبدعة او العازف المبدع لكنك ستجد حتما كل (المصفقاتية) من قريتي .

وما فشلت التجارة في تقديمه لقريتي نجح فيه فن التصفيق ، العرس يقام في نجع وراء الجبل فيأتي المتعهد الينا ليحمل افرادنا كي يقوموا بدورهم ، وأزال الفن ـ كعادته ـ كل التحفظ والخوف الذي حدّ من حركة قريتي زمنا ، واعترفت القرى ـ جميعها ـ بحق قريتي في المشاركة في أي أفراح او مناسبات ، وتعدى امرها مجرد جوقات التصفيق الى تدريب الفوازي وتجهيز الراقصات من بناتها الصبوحات اللدنات الجميلات ، واهتز الوادي كله امام ذلك الجمال الساحر الاخاذ الاخرس الذي يتراقص محملا بكل الاثارة ، وارتاح التجار القدماء او احفادهم او احفاد أحفادهم الى هذه السوق الجديدة التي يمكنهم ان يتلمسوا في ازدهارها رزقهم ، فاكثرت البلد من الجوقات : فوازي وراقصات وزمارين ومصفقين ومنظمين ومتعهدين ، وانهال المال ليعوضها عما فقدته بضياع لسانها ، ولم يحزنها ان يتحول خشمها الى مجرد فتحة خربة تطلب الغذاء او تتنفس به فقط ، وما كان عبئا وعيبا اصبح في عهدها الجديد فائدة وميزة ، وامتلأت قصور تجار قرى الوادي بالمربين والمربيات من قريتي ، هم ـ وهن ـ كاتمو أسرار البيوت وحفاظ مكنونها ، هم ـ وهن ـ المشاهدون فقط ، المغلقة أفواههم عن كل ما قد يجرح او ما يهين او ما يعيب .

ـ ٥ ـ

ووصلت المسائل الجديدة بقريتي الى ذروة الانتعاش ، ثم مضى الدهر الذي كانت تنتدب فيه ابناءها وبناتها لاحياء الافراح والاسمار حيث بدأت تتعهد هي ان تقيم الافراح والاسمار ـ وما قد يجدّ ـ داخل مربعها ، وانتشت بالميادين المزدهرة بالفرح والرقص والتصفيق والحبور ، ثم لم تلبث الافراح والسعادات أن مارت وخرجت من البيوت والميادين والشوارع الى الخلاء ، الى الحقول ، واشتهرت عائلات بتقديم أفخر وأسمن الطعام ، واشتهرت بيوت بتقديم أدسم وأفخر الراقصات ، واشتهرت أسر بتنظيم أثمن وأفخر القعدات والجلسات ، وانتبهت البلد الى العنب فجففته وقطرته ، وعصرت القصب وخمرته ، وحفرت جحورا طويلة أسفل البيوت وخزنت في قبابها الجعة والعرقي والزحلاوي ، واستطاع افراد لهم نبوغ خاص ان يستحدثوا الكثير من وصفات تقوية الباه ، وانتشر الحشيش والخشخاش وغطى مساحات واسعة من زمام أرضنا ، وضاقت البيوت باي جلسات أو مسامر فخصصت للنوم او التصنيع على ان تكون المتعة في الهواء الطلق ، هناك خارج القرية الصامتة الخضراء أقيمت الخيام والعشش والشاليهات الجميلة ، وحاول القمح ان ينمو فانكسرت سوقه فاصطحب الارز والذرة وانسلوا الى بطون القنوات حيث حاولوا النمو في البقع المنزوية ، ثم لم تلبث قريتنا ان رفضت هذا التسلل فحرمت في قانون مشهور زراعة المحاصيل المجهدة للارض ، وعدّد القانون هذه المحرمات فشملت القمح والذرة والارز والفاصوليا ، ولم ينس القانون ان يشجع المزروعات ذات التأثير

البعيد المدى (الاستراتيجي) في الاقتصاد القائم ، كما اشار بضرورة منح مكافآت تشجيعية لمن ينتج محصولا عاليا من الحشيش والافيون والقات .

ويقول بعض المهتمين لحركة البلد في تلك الفترة أن هذا التحول قد أنتج الكثير من الضحايا ، وأنا أؤكد هنا أن عدد ضحايا قريتي في تلك الفترة الهامة لم يزد عن عدد اصابع اليدين والقدمين وبعض اصابع ايدي واقدام الجيران ، والخبثاء يقصدون بالضحايا هذا النوع الكسول من الفلاحين ورعاع الارض الذين تجمدت قدراتهم عند زراعة ما لم تعد القرية في حاجة الى زراعته ، وصحيح ان البعض قد تحول الى زراعات ظهرت أهميتها وضرورتها ، لكن الكثيرين ـ الذين اصبحوا ضحايا ـ تمسكوا بزراعة الحبوب ، وتحايل بعضهم على قانون (١) تحريم زراعة الحبوب وتشجيع زراعة (المزاجات) ، فزرعوا القمح خفية وسط نبات عباد الشمس ، فاضطرت السلطات ان تجرد المنطقة نقرة نقرة ونظفت زمام القرية من كل ما رأته ضارا من مزروعات ، وقدم البعض الى المحاكمة (فصدر الحكم بالحبس على فلاح ضبطت في حقله مجموعة من أعواد العدس ، كما نفيت أسرة في القضية رقم ١٠٣٣ ج وأخرجت من القرية كلها لقيام أفرادها بتنظيم عصابة لتهريب بذور الفاصوليا ، وهناك عدة قضايا متنوعة لا داعي لحصرها في هذا الحيز ولنا عودة) .

باستثناء تلك المسائل القليلة الاهمية لم يشغل قريتي شيء ، تقهقر المناوئون للتقدم وانهزم عشاق الحياة الاسرية الكادحة ، وانكسرت رقبة مجموعة من الافراد ، بعدها عرفت البلد طريق السعادة الحقيقي دون أدنى معارضة ، وعملت على زركشة امورها وتنسيق شؤونها ، والتودد التام للقرى المجاورة حيث داومت على ارسال البعثات دعاية واعلانا عما يمكن ان تستزيد قريتي في تقديمه من وسائل متعة وترفيه لمن يقضي اجازة وسط شاليهاتها الفاخرة .

يقول هـ. ج. ويلز في سفره « معالم تاريخ الانسانية ـ ص ٦٦٠ ـ الكتاب السادس » : (كانت دور الحريم والترفيه مكتظة بالغواني والراقصات والمضحكين والممثلين والوسطاء والحراس ، والكل يلتفون بالرواد الاغنياء يحاولون ان يحظوا بعطف الضيوف ، ذلك العطف الذي ملأ الدور رياشا والخزائن ذهبا والعقول متعة ، ولقد توقف الزمن خارج هذه البلدة رافضا ان يقتحمها حيث لا بد ان نعيد النظر في معنى الخلود) .

ـ ٦ ـ

في احيان كثيرة لا نستطيع بسهولة ان نغادر اماكن نحبها ، ويلزمنا ان نسيح فيها ، ولا سيما في قرية ـ كقريتي ـ مرفهة موشاة عبقة تتضوع بالخير والالوان والصمت ، شريحة من الجنة ، مطمح عين المستمتع ومرفأ قلبه .

ولولا اني لا أثق في كثير من الروايات التي تسللت الينا عبر الاحقاب الزمنية الطويلة ... لصحبتك داخل قريتي بيتا بيتا وشاليها شاليها ، فقد حكي ان اميرها ـ او حاكمها ـ او عمدتها ـ او شريفها ـ كان يحتسي على الريق كوبا معصورا فيه اربعة او خمسة من الخراف البلدية ، وكان يحتفظ في بيت الظهيرة بثماني عشرة انثى وفي بيت المساء بست وثلاثين ، وقبل ان يلغى جيش القرية كان الامير يحضر مناورات الخفراء من خيمة مزخرفة بالبنات ، ويقال انه ـ من كثرة امتطاء الحريم ـ لم يكن يجد فرصة لان يضع قدميه على الارض ، وكان يتبلغ قبل النوم بمسحوق الحشيش والسكر ، وكان عادلا نزيها يحب الحق والخير والجمال ويعطف على الفقراء ... الخ . ومما يروى ايضا عن ذاك العهد ان واحدة من حريم القرية راهنت رواد بيتها ـ زعددهم يزيد على الاربعين ـ على قدرتها ان تعاشرهم على التوالي دون ارهاق ، وكسبت المواطنة الرهان والتي وصف بأنه حمولة بغل من الذهب والفضة والعقيق ، كما ان مولعا بالغريرات استقطعه الامير ارضا فسورها وأعشبها وأشجرها ثم جهزها بجحور وأكمات ، وأطلق فيها اكثير من البنات حيث كانت المتعة تصل الى ذروتها في هذا الجو الوحشي الشبق ، ومن المعتقد ان فحيح القرية كان يصل الى قمته في بدايات تغير الفصول ، وحاول كاتب او اثنان ان يرصدا ذلك الواقع المنتشي لكن الرقيب على اوراق البردى اشار بان يبدأوا كتاباتهم بملاحظة ان هذه الوقائع حدثت في العهود الماضية قبل ان يشل لسان القرية ، فلما رفض الكتاب ذلك امر بطردهم ليموتوا ـ كأي أغبياء ـ في المنفى (١) .

وكانت حفلات القرية الضاجة الصاخبة المزمرة الخرساء تنتهي قبل الفجر ليتسنى للرواد انهاء رغباتهم المنفق عليها قبل ظهر اليوم التالي ، وبلغ حد الشبع الصامت في قريتي ان فقدت الكلاب كلوبتها وتحولت الى مجرد حيوانات هاشة متثائبة تخطو فوقها الثعالب وأحيانا تداعبها ، وكان يحلو للرواد والضيوف ان يختطفوا البنات من الشوارع، مرحين او جادين او محاولين كسر حدة الملل ، ان ذلك يحقق لهم ـ على أية حال ـ نوعا من المتعة ، وعند اقتيادهم لمخفر الامير كان رجال الامير يقدمون الاعتذارات والهدايا للمتهمين وينذرون الخرساوات الجميلات بعدم احداث شغب مستقبلا ، ومن الحوادث النبيلة التي سربها لنا التاريخ ان رجلا قتل زوجته لانجابها خمسة اولاد دون اناث، وقيل ان الرجل وأد الاولاد ايضا في حقل خشخاش ، وعند محاكمته علل سلوكه بخوفه من خراب البيت فيما بعد ، وقد قبل الحاكم تعليله ومنح تعويضا .

ـ المقطع السابع والاخير ـ

وفجاة يتوقف المؤرخون والرواة وناقلو الاخبار ، يتوقفون والى في قمة عزها ، كل تطورها وازدهارها وما قدمته لحركة الانسان ينقطع ولا نلمح له اثرا في أوراق أو السنة أو عقول .

هل ضاعت القرية المضيئة الجزلة في مسارات الزمن الشرس ؟ وكيف ضاعت ؟

وقبل ان نتعرض لشتى النهايات ـ المفترضة ـ التي حاقت بقريتي، نتوقف قليلا عند حادث وجد مهملا وسط آلاف من الشوائب والاكاذيب .

فقد روي ان رجلا عتيّ السحنة تسلل الى القرية وظل زمنا يجوس في شوارعها وأزقتها وطرقاتها وحقولها وجناينها وشاليهاتها ، ولم يدهش القرية في الرجل الغريب الا انصرافه المطلق عن مباهجها ومراقصها وملذاتها ...

ولم يستمر اندهاشها طويلا ، فقد رأته يقيس عتبات بيوت ويحفر تحت بعض الجدران ...

وظلت القرية ناظرة للغريب بنصف عين حتى تشكى بعض الرواد من اعتراضه طريق لهوهم ...

واضطرت القرية ان تنذره تمهيدا لابعاده ، لكن الرجل اختفى . ثم نمي الى علم حاكمها ان الرجل قادم من جبال اطلس ، وانه موفد من جن البربر لفك (الرصد) وحل (العمل) تمهيدا لاطلاق سراح لسان البلد ...

---

(١) جاء في المذكرة الايضاحية للقانون : « ان احتياجات البلد من المنتجات الزراعية الخاصة بالجلسات والاسمار والليالي ، وما تتطلبه المرحلة القائمة من المحافظة على رواد القرية ـ وهم أساس اقتصادها ـ يفرض على المشرع حماية هذه المزروعات والضرب على ايدي العابثين المتخلفين الذين يتمسكون بزراعة الحبوب بشكل مناوىء لمصلحة البلد ويعد خروجا على خطها » .

(١) مصر القديمة ـ المرحوم الدكتور سليم حسن .

حوار تحت ظل المشنقة

تشاركني في حوار الفصول ..
جراحي القديمة .. والاغنيات التي أطفأوها ..
ورايات كل المغنين قبلي .. وبعدي ..
ومن أطفأت نشوة الحلم أحداقهم .. بالذهول ..

. . . .

تحاورني وردة :
ـ هل قتلت ..؟
ـ قتلت الصفائر فيّ .. تساميت لما دنا الموت مني ..
والبسني تاجه .. التفّ حولي وشاح ..
ففنيت .. لا بأس ان الجراح
عيون على هذه الارض .. لا بد يوما تضيء ..
وحدّقت من فسحة الحلم ..
حاورني ظلها ..
ـ ما رأيت ..
ـ رأيت مدى معشبا من دماء الضحايا ..
بساتين تورق فيها ثمار الخطايا ..
خيوطا من الدم ترقى عليها الشموس ..
مصابيح في عالم أطفأته النحوس ..
وأبصرت وجها نبيا .. يجيء
تكاشفه الارض .. تفرش خطواته للجذور الموات ..
فتنشق ما بين كفيه نهرا من الاغنيات ..
دنا باسطا كفه .. فمشينا معا ..
ـ في غبار الحوادث .. جزنا حصار المذابح ..
عبرنا مدائن في الحلم .. جزّت ضفائرها الخضر
أظفار فاتح ..

وكانت عيون النبيين تزهر من حولنا .. تتوالد فينا ..
وتورق في الصمت .. تخضرّ اني مشينا ..

. . . .

وحدثني :
ـ عارف بالجراح التي أضرمت في الصدور
فحيح الرؤى المشعله ..
فان تفرشوها الى الجلجله ..
جسورا .. جسورا .. جسورا ..
يغنّ لكم جسد الارض .. تنشق أضلاعكم سنبله ..

. . . .

وغيبه الصمت .. أومض نجم وراءه ..
تلفت ظلّ من البحر .. صارت جفون الاماسي رداءه
وعبر الطريق الذي يفرش الموت ازهاره في مداه
تلفت كانت يداه :
تضيء لي الدرب تنهضني .. لو عثرت
وتبسط لي ربوة الحلم حتى غفوت
وأرخيت ثوب المدى صاريه
الى عابر سوف يأتي ..
ليحفر في قاع صمتي ..
مزامير أيامه الآتيه ..

بغداد

كاظم جهاد

واستطاع البصاصون تحديد مكان الغريب القادم من جبال أطلس، وانتشر خبر في القرية ان الغريب قد استحوذ على بعض اطفالها وانه يربيهم وسط دغل بين المقابر ...

وكمنت البلد للرجل وفاجأته بحصار وجذبته من وكره ، وضبطت لديه طفلين ...

واعترف الرجل بكلام أخرق مؤداه انه أخذ على عاتقه تعليم الطفلين الكلام ....

الكلام ....؟؟

وترددت أخبار ان الحصار وصل الى مداه ، وان الساحر القادم من جبال الجن قد انتهك وتمزق أسفل الاحذية الذهبية ، وتمزق الطفلان ايضا ...

وان الجن ـ بعد ذلك ـ قامت بمهاجمة البلد فدكتها وجعلت من عاليها واطيها ...

وقيل ان ذلك لم يحدث ، وان ريحا صرصر عاتية قد هاجمت البلد في الخماسين فمزقتها ومحتها ...

وقيل ان قوما حمقى حانقين هاجموا البلدة وأبادوها ...

وقيل ان نوعا من النمل قد تكاثر في أقبية البيوت ثم فاض في الشوارع والطرقات والاجساد والمأكولات فافترسها .

وقيل ... وقيل ...

لكن المؤكد ان القرية اختفت او اندثرت ، وان حيز الارض الذي كانت تشغله ببيوتها ومواخيرها وعزها ولالائها لا زال حتى اليوم .. مجرد بقعة رطبة سوداء مقفرة تنز فيها الزنابير وتعشش فيها الحشرات وتخلو تماما من كل نبات ...

وعندما تسير فوق أديمها يمكن لك ـ اذا أنصت ـ ان تسمع اصواتا تحت الارض تموء وتنقنق ...

واثناء احتسائنا لبعض المشروبات الذهبية في شاليه خلف الهرم ينهي مؤرخ معاصر بأن القرية لا زالت فوق الارض ايضا ... لكنه عجز عن تحديد موقعها ، فقد كان في حالة سكر بين .

(القاهرة)

محمد مستجاب